صراع من أجل الهيمنة الثقافية(*)

هشام بن عبد الله العلوي

عضو الهيئة الاستشارية لـ «هيومان رايتس ووتش»، وباحث في معهد فريمان سبوغلي للدراسات الدولية التابع لجامعة ستانفورد في كاليفورنيا.

ترجمة: سعيد بوخليط(**)

ـ ١ ـ

ليل طويل للديكتاتوريات، ترسّخت معه فصامية مرَضية: في الخفاء يستهلكون كل تشكيلة الثقافة المدنّسة، وأمام الملأ يحملون يافطة الهوية الإسلامية. لكن، حالياً، يتعلق الأمر بالانتهاء من هذا التناقض، بإبداع معايير تستمد منبعها من التقليد العربي والإسلامي.

خلال القرنين الماضيين، ارتاب العلماء دائماً من الأشكال التعبيرية الحديثة، خوفاً من أن تخلق للناس إمكانية تصور حياتهم، والعالم حسب المعايير الخارجة عن الدِّين. لقد كان طبيعياً أن يعترضوا، فأغلب الممارسات الفنية والثقافية لم تكن على الأقل مقبولة. بعض الإنتاجات (الرسم المعاصر، مثلاً) اتّسم حقاً بطابع الغرب، ولم يكن يهم قط إلا فئة الأفندية (البرجوازية المستغربة).

تسامُح حذر، استند إلى إطار فكري تيولوجي (علم الكلام)، لا يقف الدِّين في إطاره عند حدود العقيدة الدِّينية (الشريعة)، بل يقبل أيضاً بنوع من التعدّدية. ممارسات أدبية وفنية، تقريباً دنيوية (الشعر، فن الخط، الفنون التشكيلية، والموسيقى)، اعتُبرت متلائمة مع الدِّين، وإن خلخلت التقاليد الاجتماعية. أعمال تميزت بتعدّدية باهرة وإبداعية جريئة في الغالب، مثّلت قسماً مكوناً لتاريخنا.

تكمن، تحديداً، عظمة الإسلام في قابليته استيعاب عدد لا يُحصى من التأثيرات الثقافية. هكذا، احتضن العالم الإسلامي، ودرس ثم طور، أكبر التقاليد الأدبية والفلسفية الكلاسيكية.

(*) للاطلاع على النصّ الأصلي، يمكن الرجوع إلى: *Manière de voir*, no. 117 (juin-juillet 2011), pp. 46-50.

(**) البريد الإلكتروني: boukhlet10@gmail.com.

وعوض حرقه الكتب، بنى خزانات بهدف حمايتها. لقد ظل لزمن طويل محراباً للوثائق الجوهرية، لما سمّي بعد ذلك بالغرب، وأدرك العالم الإسلامي أن هذا الإرث يشكّل تراثاً فكرياً للبشرية كلها.

بيد أن مع انبثاق الحركات المتطرفة، طفا إلى السطح معيار جديد، يوصف غالباً بـ «السلفي»، بإحالة إلى الرؤية الضيقة للأرثوذكسية الدِّينية التي استند إليها. وعلى الرغم من تعلّق هذا الأمر بأيديولوجيا مضمرة، بحيث نادراً ما حدّدتها قاعدة أو مؤسسة، فإن الوضع لم ينزع شيئاً من قوّتها، بل حدث العكس.

لا يستمد هذا الأفق هيبته من سلطة سياسية، لكن بسبب المكان المركزي الذي يشغله حالياً التأويل المتشدّد للإسلام داخل الهوية العربية، فإنه يجسّد رفضاً للنموذج الغربي، وكذا النيوكولونيالية.

ـ ٢ ـ

منذ عقد من الزمان، اصطدم هذا النوع من التطرف الدِّيني بقومية عربية سائدة. وتردّدت خلال أعوام الـ ٢٠٠٠ الأصوات المدنية المعتدلة في مجادلته بكل صراحة: لقد أخذت أصحاب هذه الأصوات ثنايا الفخ الهوياتي، وخافوا من أن يصيروا محافظين في أعين النظام، بل من أن يصيروا أعداء للأصالة العربية.

أستحضر هنا حدثاً مثيراً يشير إلى فئة من الشباب المغربي قررت في صيف ٢٠٠٩ أن تفطر علانية خلال شهر رمضان، وتتناول وجبة في الهواء الطلق. إلى جانب النقمة المتوقَّعة للمتدينين، أشعلت مبادرة كهاته النار في موقد حزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، القطب الأساسي للاشتراكيين الديمقراطيين داخل البلد، جعلته يعلن عقوبات في حق من أرادوا تقويض صوم رمضان. هذا «الورع» اليساري يعبّر عن نفسه، وفق لغة مستعارة من الوطنية. لقد اعتُبِرت النزهة مسيئة للثقافة المغربية، وخطيرة على التوافق الهوياتي. بناء عليه، قررت السلطة ملاحقة هؤلاء الشباب بتهمة «الإخلال بالنظام العام»، علة نادراً ما يتذرّع بها، لكن استُثمرت القاعدة الدنيوية هنا كستار، من أجل التذكير بالنظام الدِّيني. أما الطبقة السياسية القائمة على الإجماع، فليس في وسعها الدفاع عن أدنى تأويل مغاير للوصايا القرآنية.

لذلك، يخضع الفضاء العمومي، رويداً رويداً، لمبدأ ثقافة متشدّدة تؤلفها ضرورات ومحظورات، مصدرها قراءة جامدة للنصوص الدِّينية.

ـ ٣ ـ

إن الدِّين، وقد أضحى عنصراً محورياً للأيديولوجيا المهيمنة، يروم الاختزال عند تأويله السلفي، وبناء منطق، تتحول معه بذلك الثقافة التي كانت مدنّسة حتى حين، إلى كافرة. وبدل فهم منفتح للإسلام مقترن بالثقافة، سيحل محله تأويل غير ذكي للشريعة يعتبر الثقافة حراماً. بالتالي، تُقفل نقط العبور من الدائرة المقدّسة للدِّيني إلى الفضاء الدنيوي للثقافي.

مع ذلك، فإن دينامية «تعميم الرؤية السلفية» لم تمنع الأفراد من تذوّق منتجات ثقافية وافرة بواسطة التلفزيون، والفيديو، والإنترنت، وكذا الأدب الشعبي. وسيكون من باب الغواية المفرطة أن نحصر هذا التفاعل في الغرب والعولمة، ثم تحقيره باعتباره «أجنبياً»، لأن في ذلك عدم تقدير للمهارات التي امتلك بها العرب مختلف جوانب نسق الإنتاج الثقافي المعاصر.

أما بخصوص النخب، فنلاحظ شغفها المتنامي بالفن المعاصر، وما عرفه الأخير من ازدهار بفضل نظام لرعاية الآداب والفنون، تساهم فيه جمعيات أوروبية وهيئات غير حكومية، وكذا الأنظمة الخليجية.

تكمن عظمة الإسلام في قابليته استيعاب عدد لايُحصى من التأثيرات الثقافية، وقد ظل لزمن طويل محراباً لوثائق الغرب الجوهرية، التي أدرك العالم الإسلامي أنها تراث فكري للبشرية كلها.

الشعب من جهته، يعيش تحت تأثير التدفّق المتنوّع الجنسيات لوسائل الترفيه والإعلام؛ فإلى جانب شيوع نماذج أمريكا الشمالية، نلاحظ أيضاً الانتشار القوي لمنتجات ثقافية محلية، سواء تعلّق الأمر بقناة إخبارية مثل «الجزيرة» أو «العربية» ومسلسلات تلفزيونية ومعطيات الأدب الشعبي، لاسيما تلك المنشورات التي تهتم بالحياة العاطفية أو تقديم نصائح عملية، وكذا ما أحدثه الإنترنت من انفجار إبداعي على المستوى الموسيقي والفني، والاهتمام الحماسي الذي يحظى به لدى الشباب العربي.

خليط كهذا، سيصاحبه بالضرورة، توظيف تجاري و«مهرجاني» للثقافة العربية المعاصرة، ظاهرة ليست خاصة بالعالم العربي، لكن الهناك لا يهمنا في هذا السياق، وتضخّمها يعود بشكل كبير إلى دور رجال الأعمال والمتعهدين والوسطاء المحليين.

جل هذه الممارسات الثقافية لا تبالي بالمحتوى الدِّيني، فهي مشبعة بتأثيرات العولمة ـ ليس فقط العربية، لكن أيضاً الهندية والأمريكية اللاتينية.. إلخ ـ وتعبّر بالمطلق عن محتوى دنيوي. بالرغم من اندفاع الإسلام السياسي، فإن المحاولات الرامية إلى أسلمة الفن والثقافة تبقى نسبياً غير مثمرة. مع ذلك، وبسبب امتثالهم لاقتضاءات الثقافة الشمولية والمقياس الدِّيني، فإن الفنانين والمنتجين يعلنون إرادياً في الواجهة عن صفتهم كـ «مسلمين»، حتى ولو كانت أعمالهم لا علاقة لها بالدِّين، وتعضد أحياناً إضفاء الدنيوي على المجتمعات. بانتصارهم لهذا الانتماء، إذن، يفصحون عن هوية وليس عن ممارسة دينية.

ـ ٤ ـ

نوع من الشيزوفرينيا يستغرق المنطقة: في أثناء حميميتهم، وداخل فضاءات شبه عمومية موزعة باحتراس، فإنهم يلتهمون ثقافة زمانية، وحينما يجدون أنفسهم أمام الناس يسيطر عليهم هاجس إشهار هويتهم الإسلامية. قد يتعمّدون مثلاً عدم الذهاب إلى السينما والعودة إلى المسجد ثم إرخاء اللحى أو ارتداء الحجاب. هذان المحوران للحياة الثقافية

يشتغلان بالتوازي، لكن المعيار الدِّيني يظل مهيمناً على الفضاء العمومي.

سنخطئ إذا فسّرنا هذه الظاهرة بناء على التقسيم الاجتماعي بين النخب والطبقات الشعبية. إبان القرن الماضي، أمكن البرجوازية الغربية التمتع حتماً بكل حمولة الثقافة الدنيوية، بينما ظل أفراد الشعب، بشكل عام، منصرفين إلى ثقافة تقليدية يهيمن عليها الإسلام. مفارقة، لم تنته. لكن، منذ عشرين سنة، أدت تطوّرات التعليم ومحاربة الأمية وما رافقهما من نمو سريع لوسائل الاتصال ـ نجد في المقام الأول التلفزيون والإنترنت ـ إلى استبدال أوراق اللعب. كما أن الاطلاع على لغات وثقافات أخرى ليس مجرد ترف.

انبثقت لبنات ممارسات ثقافية تتنوع شيئاً فشيئاً. يقرأ الشباب الرواية، ويشاهد أفلاماً ويطّلع على وثائق، ويستمع إلى موسيقى، ويُبحر في مواقع إلكترونية، غالباً بلغات أخرى غير العربية. شباب، لا يستهلك فقط منتجات، بل يستوعب تطبيقات وممارسات ثقافية تتسم جوهرياً بتأثيرات الشرق والشمال والجنوب، والغرب طبعاً.

إن تعدّد ثقافة الجماهير لا يخلق ميكانيكياً مساراً بين الدنيوي والديمقراطية، بل يتعلق الأمر بانفصال. هكذا، الشخص نفسه يقرأ اليوم رواية حب ويقرأ غداً منشوراً دينياً، ثم يتناول فطوره أمام قناة «إقرأ» الفضائية المخصصة للإسلام، وينهي عشاءه على إيقاع أغنية تصدح بها قناة «روتانا».

السلفيون، بدورهم، تكيّفوا جيداً مع هذه الأدوات الجديدة، كالإنترنت. ويعرفون كيفية توظيفها لصالحهم. يعتقد المتدينون أن الإقبال على الثقافة الدنيوية ينبغي أن يبقى «خطيئة سرية»، بالنسبة إلى المسؤولين، تقتصر على الترفيه، ولا تكون لها نتائج اجتماعية أو سياسية، ويلزم كل واحد احترام المعيار السلفي، حتى عندما يرتكن إلى دائرته الخاصة. بشكل مفارق، الانتهاك اليومي والشخصي للوصايا القرآنية في إطار الترفيه المنزلي، لا يعمل إلا على مضاعفة سيطرة الدِّيني : الخرق فردي، بينما المعيار السلفي عمومي. يتآلف هذان الرافدان حول صيغة سلطة أيديولوجية «ناعمة» بمعنى أكثر فعالية من رقابة بيروقراطية.

هذه الشيزوفرينيا، لا تراعي أبداً اللغة، محور الثقافة. تاريخياً، احتفل العلماء دائماً بالمكتوب باعتباره التعبير الأكثر ارتقاء للفكر الإنساني، لكن النصوص العربية تحتل مكاناً هامشياً في الأدب، فالمثقف العربي لا يكتب باللسان الشفوي لشعبه. القوميون والأصوليون يلتقون حول نقطة : إنهم لا يقرّون بوسيلة للتعبير الثقافي، إلا العربية الكلاسيكية، لغة القرآن. بالنسبة إلى البعض، هذه الفصحى ترسخ الوطن العربي، أما عند آخرين، فإنها صلة وصل بالنسبة إلى العالم الإسلامي (الأمة).

طبعاً، لا يأخذ هذا المفهوم في عين الاعتبار التمايزات العميقة بين العربية الكلاسيكية، التي نادراً ما يتم التحدّث بها خارج المدارس القرآنية، وكذا لغة الشارع، أو أيضاً العربية الجارية التي تتداولها وسائل الإعلام والخطابات العمومية والخيالات الشعبية. بالنسبة إلى الكتّاب، تبدو المهمة أكثر وعورة من أن تشكّل الرواية جنساً مشبوهاً، عندما تبلور الأسئلة الوجودية بطريقة اقتحامية على مستويين: بالتحرّر من الدِّين تمّ الذهاب باللغة العربية إلى

ما هو أبعد من حدود الفصحى. هذه القطيعة تمنع بروز التعبير الشعبي.

نعثر على الصعوبة ذاتها في الميدان القانوني. كل دولة تحدد فهمها الخاص للشرعية «الإسلاموية». الراجح أنها تضيف إلى تشريعها مبادئ من القوانين الحديثة، مع الإقرار للشريعة بقيمة المصدر النهائي. هذه الثنائية، السائدة حتى الوقت الحاضر، تقيد الإمكانات السياسية. هنا، أيضاً، تطبيق القاعدة الدِّينية لا يحكم بالضرورة الممارسة داخل المحاكم أو الإدارة.

حينما قبلت الدولة العربية الحديثة المنظور السلفي للضوابط الاجتماعية، بخصوص العادات والسلوكات (ضغوطات من أجل ارتداء الحجاب أو إغلاق دور السينما، إلخ..)، فإنها كرّست سياستها التحالفية الضمنية مع العلماء، الحراس الرسميين للإسلام، الذين يظهرون أكثر انشغالاً بمحاباة النظام، من دون العمل على إصلاحه.

يقبل المثقفون أحياناً الدفاع عن حكّامهم، ظناً منهم بأن أية حكومة، ولو اتصفت بالاستبداد، ستكون أقل شرّاً من الإسلاميين، ما دامت تحافظ على بعض فضاءات الاستقلال الثقافي.

يمكن للدولة أن تقبل بتيارات إسلامية «معتدلة»، بحيث يرتكز مخططها خاصة على تعبئة أيديولوجيين متديّنين ـ وليس البوليس ـ من أجل نشر التقوى بين صفوف الأفراد. مجال تحركها الحقيقي ينصب على منع أحكام الشريعة الأكثر قسوة (مثلاً، رجم مرتكب الزنا، سواء كان رجلاً أو امرأة)، وهو ما يسمح لهذه الدولة بأن تجعل من نفسها سداً يقف أمام أسلمة كلية، قياساً بمعتدلي الداخل والملاحظين الغربيين، مع تأكيدها أيضاً أولوية السلفية كمعيار اجتماعي.

في الآن نفسه، يتعمّد المثقفون المرتبطون بالإصلاحات الديمقراطية توخّي حماية الدولة لهم، ضد العلماء والأصوليين. وفي المقابل، يقبلون أحياناً الدفاع عن حكّامهم، ظناً منهم بأن أية حكومة، ولو اتصفت بالاستبداد الشديد، ستكون أقل شرّاً من الإسلاميين، ما دامت تحافظ على بعض فضاءات الاستقلال الثقافي، وترعى موجة الأمل بخصوص تحرير مستقبلي.

ـ ٥ ـ

خلال تسعينيات القرن الماضي، ساند مثقفون علمانيون الدولة الجزائرية وهي تصارع الإسلاميين. أما، في مصر، فقد استفاد الكاتب سيد القمني من حماية الدولة بعد تلقّيه تهديدات بالموت، بل حصل على وسام في حزيران/يونيو ٢٠٠٩.

تتفق الدولة أحياناً مع تنظيمات إسلامية توصف بأنها أقل تهديداً، كالإخوان المسلمين مثلاً، بالرغم من عدم استعداد الأطراف المتهمة، وقد تذهب إلى غاية أن تضمن لها أقلية ثابتة في البرلمان، تحت يافطة معارضة سلمية، ووضع كهذا سيمنحها إمكانية ردع الجهاديين والإسلاميين الذين يستهدفون قلب النظام السياسي من الداخل.

التوازن العابر، بين مختلف الفاعلين الاجتماعيين، يترك أيادي السلطة مفتوحة كي

تواصل سياستها القمعية، الشرسة دائماً. لكنها رصدت في الوقت الراهن هدفها بدقة أكثر، وهي تنحاز إلى إلزام المنظور السلفي.

يعتقد المثقفون أن هذه الوضعية المُحبطة قد تؤدي إلى مختلف أشكال التراجع السياسي. من جهة، نشاهد «هروباً للأدمغة»، أكان واقعاً أم افتراضاً. هكذا، نستحضر مجموعة فنانين وكتّاب يعيشون حالياً في الخارج، فانقطعوا إلى جمهور بعيد عن بلدانهم. يقدمون بالأحرى أنفسهم كـ «عرب» و «مسلمين»، بدلاً من كونهم مصريين أو تونسيين. يلتمسون هوية قريبة عناصرها التأسيسية من الهوية السلفية، ويكتبون بالفصحى، ويعتبرون أن كلمة «عربي» مرادفة لكلمة «مسلم». عناصر توزعت جغرافياً وأيديولوجياً، وفقدت الاتصال مع بلدها وشعبها، وفضّلت الظهور بطريقة عامة كـ «عرب».

الحاكمون لا يرهبهم من الأمر شيئاً عندما ينتقل مثقفو بلدانهم إلى معانقة قضايا يتوافق عليها الجميع، مثل فلسطين والعراق، عوض الانخراط المباشر في الحياة السياسية الوطنية.

المثقفون بدورهم يتملّصون بسهولة من النزاعات الاجتماعية لبلدانهم، ويذوبون أكثر وبمحض إرادتهم في الوحدة المجردة للمجموعة الدولية، بحيث إن الاقتصاديات المحلية تشكّل قاعدة دعم متواضعة جداً، بالنسبة إلى الفنانين والكتّاب. غياب سياسة وطنية لدعم الإبداع غذى النزوعات الفردية، وترك السياسة عند المنتجين الثقافيين الذين سيبحثون في الخارج عن المتلقّي ومصدر للإرادات.

كثير من أنصار الآداب الفنون يفضّلون الحقل الثقافي «المعقم» من أجل إصلاح المجتمع؛ تلك حالة «مجموعة فورد» و«مجموعة سورس» أو الهيئات التي خرجت من رحم الملكيات البترولية. فمعارض فنية ومحلات زجاجية فاخرة في الخليج، تقدّم قطعاً كبيرة لمنتجات يُفترض أنها تعكس الهوية العربية الإسلامية، لكن بمجرد استحضار مموّليها الغربيين، سيتجلى الانفصال عن المجتمع الأصلي.

في ما يخص الميدان الأدبي، تتابع العديد من الجوئز التنافسية «أفضل» عطاءات الثقافة العربية، مثل جائزة الماجد بن الظاهر (لبنان)، أو جائزة «البوكر» العالمية للرواية العربية (لندن)، باشتراك مع المؤسسة الإماراتية. أن يشارك فنانون ينتمون إلى منطقتنا، بشكل مطلق في اللعبة الثقافية الكونية، لا يستوجب اللوم، بل على العكس قد يشكّل تقدماً، غير أن الفنان «العربي» يوشك، حين تصير له قيمة في المشهد الدولي، على الابتعاد عن شعبه، وبالتالي يفقد دوره التحرري.

ـ ٦ ـ

حتماً، فتح الإنترنت فضاءات جديدة لإنتاج المعطى الثقافي واستهلاكه؛ إذ كانت الشبكة العنكبوتية قد أضفت مزيداً من الفعالية على حركة معارضة موجودة آنفاً، غير أنها لا تؤسس من تلقاء ذاتها وعياً سياسياً. نعم، تُستخدم كأداة لتوسيع بنى تعبئة ما، كما حدث في مصر، لكنها لا تعوّض العمل الميداني الدؤوب الذي يقتضيه تنظيم هيكلة النضال. ويبقى الجهاديون، في توظيفهم للإنترنت، أكثر خطورة من الناحية الابتكارية، ولا يترددون في الالتجاء

إلى الفكاهة أو النشيد. ترتضي قناعاتهم الدِّينية اكتشافات تكنولوجية، بسبب ربما التمييز الذي يقيمونه بين الوجه المحترم للمفكر وكذا المثقف.

من جهة أخرى، يساهم الإنترنت في العزلة والتقسيم، بحيث يشكّل رواده عموماً مجموعات صغيرة سرية، يتواصلون ـ غالباً بشكل مجهول ـ عبر شاشات، في إطار منفرد من خلال تنقّل دائم. الخفاء يمكّن الساخطين من تبرير راديكاليتهم، وهم يوفّرون كل مواجهة مفتوحة مع الخصم و ما يترتب عليها.

إن مشاركة فنانين ينتمون إلى منطقتنا في اللعبة الثقافية الكونية يشكّل تقدماً، غير أن الفنان "العربي" يوشك، حين تصير له قيمة في المشهد الدولي، على الابتعاد عن شعبه، وبالتالي يفقد دوره التحرري.

عندما يتخلى الفنانون والمثقفون عن الدور المنوط بهم (مازالوا يمارسونه أحياناً في بلدان إسلامية مثل إيران وتركيا)، فإنهم ينتهون من أن يكونوا شعلة حرية لحركة اجتماعية وسياسية وثقافية، ثم يتحولون بامتياز إلى زمرة مداهنين، يستوطنون حضن الدولة، أو مجرد وجهاء أغنياء وأقوياء. لقد تلاشت صورة الفنان الرافض للنظام الاجتماعي، كما جسّدها منذ عهد قريب الكاتب المصري صنع الله إبراهيم، أو المجموعة الموسيقية المغربية «ناس الغيوان».

في مصر، مثلاً، اكتفى الرسام الطليعي فاروق حسني بمنصب وزير للثقافة. وبانتقالنا نحو سورية، نكتشف أن حنان كساب حسن، مترجمة [كتاب *Les Paravents*] لجان جينيه (J. Genet)، عُيّنت عام ٢٠٠٨ منتدبة عامة لبرنامج «دمشق عاصمة للثقافة العربية» المدعوم من طرف اليونسكو. أما أسماء فنية أخرى، أمثال وائل شوقي (يعرض في الإسكندرية مرة واحدة كل عامين) أو هالة الكوسي (الفائزة بجائزة أبراج كابيتال للأعمال الفنية)، فتظل بعيدة عن كل التزام سياسي.

إن تحديث الحركات الثقافية داخل العالم يمكن، مع ذلك، أن يبدو مثمراً. فالفنانون المعنيون يستفيدون من رأس مال رمزي وحظوة يمكنهم توظيفهما قصد السعي إلى إحداث التغيرات في أوطانهم. الرهان على النظام القائم ليس حلاً، وكذا استكشاف مناخات مغايرة لممارسة الاستقلال الذاتي والتجريب، تهيئ لممكنات تجديد المعارضة للأنظمة الأوتوقراطية المسيطرة على جل أقطار العالم العربي.

شيء يقيني: كي يتجه العمل الفني والفكري نحو الديمقراطية السياسية والاجتماعية، يتحتم مواجهة المعيار السلفي في أرضه الخاصة، ونقترح عليه تناوباً معقولاً. وبعيداً عن تبنّي نموذج مصنوع مسبقاً، يجدر الاستناد إلى تقليد عربي وإسلامي، ضاعف طوال قرون عديدة تشكّلات سلطة الثقافي. هذا المنحى العمومي الجديد، المتكيف مع العالم وكذا تقاليدنا الذاتية، سيكون إحدى ركائز كل مشروع ديمقراطي حقيقي، من دون أن يتأسس على أنقاض رفض للتحدي السلفي أو الاستسلام لشروطه □